

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾
هذه هي بداية سورة الأنفال المدنية.

والسورة تهتم بتربية الجماعة المسلمة على منهج الله، وتُعِدُّها لقيادة البشرية للعمل بهذا المنهج الرباني.

وقد نزلت في غزوة بدر الكبرى، في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة النبوية، لما اختلف المسلمون في الغنائم بعد المعركة.

فقال الشباب: هي لنا؛ لأننا باشرنا القتال، وقمنا به، وقال الشيوخ: هي لنا؛ لأننا كنا حماية لكم تحت الرايات، ولو انكشفتم لرجعتم إلينا، فلا تأخذوها وحدكم.

وهنا: نزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، والمعنى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد عن الأنفال، والأنفال: هي غنائم الحرب. وسميت بالأنفال؛ لأنها نفل وعطية من فضل الله تعالى.

﴿قُلِ﴾ لهم: حكم الأنفال ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يأمر الله فيها، وينفذ الرسول، ويقسم كما أمر الله، وليس ذلك لأحد آخر.

ثم يأمر الله المؤمنين بثلاثة أوامر - مهمة جداً في موضوع «الجهاد في سبيل الله» - الذي هو خط السورة العام:

يأمر أولاً : بالتقوى، فيقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه؛ حيث إن الجهاد بدون تقوى الله ليس بجهاد.

ويأمر ثانيًا: بإصلاح ذات البين، فيقول: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم، حتى تكونوا مجتمعين على أمر الله ورسوله، في إلفة ومحبة واتفاق؛ حيث إن الجهاد يحتاج إلى وحدة صف، ومن ثم فلا بد من إصلاح ذات البين.

ويأمر ثالثًا: بالطاعة لله والرسول ﷺ، فيقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في كل ما يأمر به الله ورسوله؛ حيث إن الجهاد يحتاج إلى انضباط، والانضباط هو الأساس في الجهاد، ولا انضباط بدون طاعة الله ورسوله.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فالتزموا بهذه الأوامر الثلاثة المذكورة. وبعد ذلك يحدد ربنا سبحانه وتعالى صفات المؤمنين الحقيقيين، الذين يقوم بهم «الجهاد الإسلامي» فيقول:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في إيمانهم، هم ﴿الَّذِينَ﴾ يتصفون بهذه الصفات الخمس: ثلاث قلبية، وواحدة بدنية، وواحدة مالية:

الصفة الأولى: قلبية ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: فزعت وخافت من وعيده، واستعظمت وتهيبت من جلاله.

الصفة الثانية: قلبية ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ أي: القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ازدادت قلوبهم بها اطمئنانًا ويقينًا بالله تعالى.

الصفة الثالثة: قلبية ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه، ويفوضون أمورهم إليه، لا يرجون سواه، ولا يطلبون إلا منه، ويعلمون أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فيسلمون الأمر إليه.

الصفة الرابعة: بدنية ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يحافظون عليها في مواقيتها، وكيفيةها، وشروطها، والإخلاص لله فيها.

الصفة الخامسة: مالية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك يشمل الزكاة، والصدقات، وسائر حقوق العباد، من واجب ومستحب.

ثم يبين ربنا تبارك وتعالى: أن المتصفين بهذه الصفات الخمس، هم ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] .. فيقول الله عز وجل:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٤﴾

يعني: هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات المذكورة ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: إيماناً صادقاً لا شك فيه، ولا تردّد به.

هؤلاء ﴿لَهُمْ﴾: ﴿دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومراتب ومقامات، بعضها فوق بعض، على قدر أعمالهم وإخلاصهم فيها.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لسيئاتهم وخطاياهم التي كانت منهم بحكم بشريتهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة، خال من الجهد في كسبه، أو الخوف من انتهائه.

ونلاحظ: أن الآيات بهذا الشكل، رفعت الهمم والعزائم لكل لوازم الجهاد في سبيل الله، وعالجت كل عوامل الخذلان، والخلاف، ودعت إلى الطاعة، والارتفاع إلى درجات الإيمان الكامل.

ثم تدخل الآيات إلى غزوة بدر وأحداثها، فيقول ربنا عز وجل:

﴿كَأَمَّا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿٥﴾

والمعنى: ﴿قُلِ الْآنْفَالُ﴾ استقرت ﴿لِلَّهِ وَالرُّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] بالحق، بعد خلافكم حولها ﴿كَأَمَّا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ بَيْتِكَ﴾ في المدينة ﴿بِالْحَقِّ﴾ للقتال ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ لهذا القتال، لعدم استعدادهم له، مثلما كانوا كارهين لتوزيع الغنائم قبل تقسيم الله تعالى لها. هذا الفريق كانوا:

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾

يعني: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي﴾ القتال، لعدم استعدادهم له، والقتال هو ﴿الْحَقُّ﴾، وكانوا يجادلونك ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ لهم الحق في القتال، وإعلامك لهم بأنهم سينصرون، وصار حالهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ وذلك لقلة عددهم، وانعدام فرسانهم، وكثرة عدوهم، وقوة شوكتهم.

ومع ذلك: فقد كان في القتال كل الخير للإسلام والمسلمين.

ثم يذكر الله عز وجل المؤمنين بما وعد به رسوله ﷺ، فيقول:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: واذكروا يا مسلمون ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ نوال ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ القافلة، فتأخذونها بما فيها من أموال، أو الجيش، فتنتصرون عليهم وتغنمون منهم، وكنتم ﴿تَوَدُّونَ﴾ وترغبون ﴿أَنَّ﴾ تكون لكم القافلة ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ أي: غير ذات السلاح والحرب ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ ولكن ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ فهو يريد ﴿أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ ويعليه ويثبتته ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وهي الجيش الكافر، وذلك لـ ﴿يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ فيهزمهم، ويستأصلهم.

وما ذلك إلا ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ وهو الإسلام، فيظهره على الكفر، وينصر أهله على أعدائهم ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ وهو الكفر، فيمحقه، ويدحر أهله، حتى ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون إحقاق الحق الذي يكرهونه، وإبطال الباطل الذي يحبونه. وعلى ذلك: فليس الخير فيما تودون وتحبون أنتم، بل الخير كل الخير فيما يحبه الله ويريده.

ويلاحظ: أنه إذا كان الله تعالى يحب القتال في سبيله، فينبغي أن يحبه المسلمون ويألفوه، ويحملوا أنفسهم عليه؛ حباً في الله، وطاعة له، ولرسوله.

ثم يذكر الله تعالى المؤمنين - أيضاً - بموقف من مواقف يوم بدر، فيقول:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: اذكروا نعمة الله عليكم، وقت أن كنتم ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أن ينصركم؛ لضعفكم، وقلة عددكم، ونقص عددكم، وقوة عدوكم، وكثرة عدده وعُدده، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي: أجابكم، ولبى استغاثتكم، وكانت هذه الإجابة: بما يفيد

قوله: ﴿إِنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ أي: سأغيثكم وأرسل لكم هذا العدد من الملائكة، متتابعين، يناصرونكم في قتال عدوكم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾
 إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

أي: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة بعد استغاثتكم به:
 ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ أي: بهذا الإمداد بالملائكة
 ﴿قُلُوبُكُمْ﴾.

ولكن: إياكم أن تفهموا أن النصر من صنعكم، أو من مساعدة الملائكة لكم، بل الحقيقة التي ينبغي معرفتها جيدًا أنه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فقط، والمنصور: مَنْ نصره الله.

حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ينصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرع الجهاد لقهر أعدائه.

وعلى هذا: فالواجب على المسلم ألا يتوكل إلا على الله في جميع أحواله، وأن لا يثق بغيره، وأن يثق به وحده، وأن لا يتكل على قوته، وشدة بأسه، حيث إن الله تعالى بيده وحده الإعانة والنصر.

يقول ربنا سبحانه وتعالى عما حدث من مُبَشِّرَاتٍ في بداية المعركة:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ ﴿١١﴾

يعني: اذكروا من نِعَمِ الله عليكم وبشاراته بالنصر لكم ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ أي: ينزل عليكم ليلة المعركة النعاس، وكأنه يغطيكم به ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ فيجعله لكم أمناً من الخوف من أعدائكم، ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ صيحة يوم المعركة بقدرته ﴿مَاءً﴾، وذلك ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من كل حدث - أصغر أو أكبر - أصابكم، ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسوسته، التي تعذب نفوسكم، وتخوفه لكم من العطش لقلة الماء، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بالصبر، واليقين في النصر، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ حتى لا تسوخ في الرمل اليابس.

وكل هذا تذكير لهم بما في قدرة الله لمن توكل عليه، وقاتل في سبيله.
وهناك بشارات أخرى في قوله تعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

وهذه نعمة أخرى وبشارة جديدة خفية: يظهرها الله تعالى، ليشكره المؤمنون عليها، ولتذكرها الأجيال؛ فيتوكلوا على الله، واثقين بنصره وتأييده في أية معركة للإسلام يدخلونها.

والمعنى: اذكر أيها المؤمن ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ﴾ الذين أنزلهم في بدر، قائلاً لهم: إِنِّي ﴿مَعَكُمْ﴾ بالتأييد، والعون، والنصر، ﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بتقوية قلوبهم، أو بتكثير عددهم، أو بتبشيرهم بالنصر.

ومن جهتي أنا ﴿سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ والهزيمة النفسية، ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: الرؤوس فافلقوها، والرقاب فاقطعوها، ﴿وَأَصْرَبُوا﴾ كذلك ﴿مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: قطعوا أصابعهم، وشلُّوا أيديهم وأطرافهم، حتى يعجزوا تماماً عن القتال.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

يعني: وما كل ﴿ذَلِكَ﴾ إِلَّا ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿شَاقُوا﴾ أي: خالفوا، وعاندوا وحاربوا ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الدنيا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ له في الدنيا والآخرة.

وما رأيتم وحدث لكم في المعركة لون من العذاب:

﴿ذَلِكَ لَكُمْ فَدُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾
أي: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب، بالهزيمة والخذلان في الدنيا ﴿فَدُوقُوهُ﴾ الآن، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فوق ذلك، عند الله ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة.

وفي الآيات التالية نداءات توجيهية لأهل الإيمان، وهذه التوجيهات: تستند إلى دروس غزوة بدر. وهي - أي التوجيهات - تضع:

أولاً: دستور الحركة الجهادية المفروضة على المسلمين،

ثانياً: كما تضع: خطوات النجاح في هذه الحركة.

ثالثاً: الأساسيات التي تقوم عليها فريضة الجهاد وهي:

(١) الثبات في المعركة.

(٢) الطاعة.

(٣) الاستجابة المباشرة للأمر.

(٤) الحذر من الخيانة.

(٥) التقوى.

هذه النداءات الإيمانية التي تحمل هذه التوجيهات الربانية هي:

النداء الإيماني الأول: حول ضرورة الثبات في المعركة، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ في المعركة، وجهًا لوجه ﴿فَلَا﴾ تخافوهم، وتنهزموا أمامهم، و﴿تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ﴾ أي: تفرون أمامهم، وتعطونهم ظهوركم، وتهربون منهم.

﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

يعني: ومن يفعل ذلك الفرار من ميدان المعركة: فقد عاد منها وعليه غضب من الله، وصار ﴿مَأْوَاهُ﴾ مصيره في يوم القيامة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ﴾ هذا ﴿الْمَصِيرُ﴾.

ولا ينجو من غضب الله وهذا المصير إلا من كان بهذا التولي ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ﴾ أي: مغتبراً لموقعه، كفن من فنون الحرب، أو خدعة من خدعه، وهو يريد هزيمة عدوه، أو كان ﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أي: منضمّاً إلى جماعة أخرى مقاتلة من جماعة المسلمين التي تقاتل هؤلاء الأعداء، فتصرفه حيلة من حيل الحرب.

وإذ قد اتضح ذلك واستقر في النفوس: وجوب عدم الفرار، فاعلموا أن الفاعل الحقيقي لكل شيء هو الله تعالى، حيث يقول:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئَلْبَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧)

أي: اثبتوا يا أيها الذين آمنوا في المعركة، واطمئنوا، وثقوا في النصر، ولا تغتروا فإن الذين قتلوا من الكفار في بدر ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أنتم بقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بقدرته، ونصره إياكم.

وإن الذين عموا من الكفار في بدر ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد أعين القوم ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصى؛ لأن كفا من الحصى لا يملأ أعين الجيش الكثير ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيث أوصل ذلك إليهم، وأعمى به عيونهم.

وقد فعل الله ذلك من القتل والرمي، ليقهر الكافرين، ويهزمهم، ﴿وَلِئَلْبَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعطيهم ﴿مِنْهُ﴾ سبحانه ﴿بَلَاءٌ﴾ عطاء ﴿حَسَنًا﴾ وهي الغنائم التي حصلوا عليها، والنصر الذي فرحوا به.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأحوال.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨)

أي: ﴿ذَلِكُمْ﴾ القتل، والرمي، والعطاء الحسن للمؤمنين: حق، يضاف إليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ﴾ أي: مضعف ﴿كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: حقدهم، وتخطيطهم، وحروبهم.

ويلاحظ: أنه في إضعاف كيد الكافرين، وإعطاء المؤمنين العطاء الحسن: تثبيت لهم، وتقوية لنفوسهم، حتى لا يخافوا من أعدائهم. فهل يفعلون؟

ثم يخاطب الله الكافرين - استهزاءً منه بهم - ليعلم المؤمنين بما يريد عز وجل، وليزيد في طمأننتهم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩)

يعني: أيها الكفار ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ أي: تطلبون النصر ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ يعني: فقد جاءكم النصر للمسلمين عليكم.

﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ عن عداوة الإسلام وأهله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لعداوة الإسلام وأهله ﴿نَعُدْ﴾ لنصرة الإسلام وأهله عليكم، واعلموا أنه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ﴾ أي جمعكم وعددكم مهما كانت ﴿شَيْئًا﴾ مما تريدون، حتى ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ ففتنكم لتحقيق هذا الغرض، خاصة وأنكم لا تعلمون ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد.

النداء الإيماني الثاني: وهو حول ضرورة «الطاعة»، يقول الله تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على العموم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل شيء، ومن ذلك: القتال، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: تعرضوا، أو تبتعدوا، أو تهاونوا في هذه الطاعة خاصة ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن يتلى عليكم، والرسول ﷺ يتحدث إليكم.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون كالمنافقين ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ كذباً ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ﴾ في الحقيقة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يصدقون.

ثم بيّن ربنا سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ شر الناس، وأسوأ أصنافهم، حيث يقول جل وعلا:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ التي خلقها الله، وتدب على وجه الأرض، وهي بغیضة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾.

﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الذين هم صم عن سماع الحق، بكم عن فهمه، وعدم تعقله، والنطق به.

وذلك: لأن كل دابة سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وأما هؤلاء فقد خلقوا لعبادة الله، ولكنهم كفروا.

ولذلك عاقبهم الله تعالى بما يفيد عزه وجل:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) يعني: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء البكم ﴿خَيْرًا﴾ من صدق، أو رغبة في صلاح ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً يفيدهم. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وصدقوا ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ وارتدوا بعد ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان، لعدم توافر الطاعة لديهم، وتكبرهم عن الحق يأتيهم.

النداء الإيمانى الثالث: وهو حول ضرورة الاستجابة المباشرة لأمر الله ورسوله، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) يعني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا﴾ فوراً ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة والانقياد لأمرهما ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أحدهما ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من أمر الدين، بالامتثال للأمر، والاجتناب للنهي؛ حيث إن ذلك فيه السعادة الكاملة، التامة، في الحياة الأبدية، ومن هذه الأشياء التي يجب تلبية الدعوة فيها فوراً الجهاد؛ لأن فيه: السعادة في الدنيا بالنصر، وفي الآخرة بالشهادة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فلا إيمان إلا بإرادته، ولا صلاح إلا بمشيئته، ولذلك: عليكم بالاستجابة الفورية، لأمر الله ورسوله؛ ليوثق الله قلوبكم للخير، ونفوسكم للصلاح.

خاصة: ﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيثيبكم على حسب سلامة القلوب، وإخلاص الطاعة، وسرعة الاستجابة.

أيضاً: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥)

أي: ﴿وَاتَّقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتْنَةً﴾ أي: معصية ﴿لَا تَصِيبَنَّ﴾ بضررها ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تعم الجميع بهذا الضرر، المسيء والمحسن.
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب من خالفه.

ويلاحظ: أنه لا بد إذن من تطبيق الإسلام كله بالاستجابة لله ولرسوله، وأنه لا بد من قتال الأعداء.

وأنه: إذا لم تكن هناك استجابة، ولا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، ولا قتال من أجل نصرته الإسلام، فإن المسلمين معرضون لكارثة تحل بهم جميعاً.
ثم يأمر الله عباده المؤمنين أن يتذكروا نعم الله عليهم، فيقول عز وجل:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَيَأْوِنَكُمْ وَيَأْبَدَكُمْ بِبُصْرَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وفي هذه الآية الكريمة: يذكّرهم الله بحالهم قبل بدر، وحالهم بعدها فيقول:
﴿وَاذْكُرُوا﴾ حالكم ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ عددكم ﴿قَلِيلٌ﴾ وحالكم ذليل؛ حيث إنكم ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكية، فقد كنتم ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ إذ كانوا كلهم لكم أعداء، مضادين لدعوتكم، كافرين بها، ولكن الله عز وجل أنعم عليكم، نعمًا كثيرة، ﴿فَيَأْوِنَكُمْ﴾ في المدينة، حيث أصبحت لكم وطنًا، ﴿وَيَأْبَدَكُمْ بِبُصْرَةٍ﴾ على الكفار، يوم بدر، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهي الغنائم الكثيرة، التي حصلت عليكم، بعد نصركم على أعدائكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله، على هذه النعم التي أنعم بها عليكم، ومن الشكر: أن تستجيبيوا لله وللرسول في كل شيء.

يلاحظ: أن مجيء هذه الآية بعد الأمر بالاستجابة لله وللرسول، فيه تذكير لهذه الأمة بأن طريقها للقوة، والرزق، والرفاهية هو الاستجابة الفورية المباشرة لله وللرسول ﷺ.
كما أنها: إذا فُكرت في غير هذا، فقد انحرفت عن الطريق السليم، وهذا حال الناس اليوم!!

النداء الإيماني الرابع: وهو حول التحذير من الخيانة، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

يعني: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بترك الطاعة، وارتكاب المعصية، ﴿وَلَا تَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ﴾ بإفشاء أسرار المؤمنين للكافرين والمنافقين ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ضرر ذلك الإفشاء للأسرار، والخيانة للأمانة.

ثم يأمر الله المسلم أن يعلم أمرًا هامًا قائلاً:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) أي: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: قد تكون سبباً في وقوع الإنسان في الفتنة؛ حيث إنه لا يدفع الإنسان إلى ترك القتال، أو ارتكاب المعصية، أو إفشاء الأسرار، أو خيانة الأمانة إلا رجاء: المال أو الخشية على العيال، أو حب الأولاد، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فلا ترتكبوا المعاصي، ولا تتركوا القتال في سبيل الله، ولا تفشوا الأسرار، ولا تخونوا الأمانات؛ لتنالوا من الله هذا الأجر العظيم.

النداء الإيماني الخامس: وهو: حول ضرورة التحلي للمجاهدين وغيرهم بالتقوى، يقول الله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)

يعني: إن تتقوا الله أيها المؤمنون، فإن الله عز وجل يعدكم ويمنحكم هذه الأشياء: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ مخرجاً من ضيقكم، ونجاة من أزماتكم، ونصرة على عدوكم. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: يمحوها من صحائفكم. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم؛ حيث يسترها عن أعين الناس، يوم ﴿تُعْرَضُونَ لَا تَحْفَى مِنْكُمْ حَافِيَةً﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على عباده المؤمنين.

بعد هذه النداءات الإيمانية التوجيهية الخمسة، يكون الحديث الإلهي مع النبي ﷺ، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠)

أي: اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في مكة؛ حيث كانوا يخططون، ويدبّرون ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يحبسونك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم قتلة رجل واحد، يشتركون فيها ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، منفياً بعيداً عنها وعن أهلها. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ في ذلك، ويتآمرون عليك، في الخفاء، ولكن ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم؛ حيث يعاملهم بمكرهم، فيخفي عنهم ما أعدّ لهم، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ إذ مكره أنفذ من مكرهم، وأشد تأثيراً.

ثم يخبر ربنا عز وجل عن كفر قريش، وعتوهم، وعنادهم، وباطلهم، هم وأمثالهم، فيقول جل شأنه:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١)

أي: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ إذا تلي عليهم القرآن عاندوا وتبجحوا، و﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذا من قبل ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهم كاذبون في ذلك؛ لأنهم دُعوا - قبل ذلك كثيراً - إلى أن يأتوا بسورة واحدة، من مثل هذا القرآن، فلم يفعلوا، ولن يفعلوا.

ولذلك: لَمَّا عجزوا، قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا خرافات السابقين.

ومن كفرهم وعنادهم، وعتوهم كذلك: ما يحكيه عنهم رب العزة:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّنْ عِنْدَكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢)

يعني: اذكر وقت أن ﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ﴾ القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مِمَّنْ عِنْدَكَ﴾ فعاقبنا على إنكاره.

ثم حدّدوا نوع العقاب حيث قالوا: ﴿فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كما فعلت بأصحاب الفيل، ﴿أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: أي نوع مؤلم من العذاب. وبلاحظ: أنهم - لعنادهم - لم يقولوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّنْ عِنْدَكَ﴾

عِنْدَكَ ﴿فَاهْدِنَا لَهُ، أَوْ وَفَّقْنَا لَاتِّبَاعِهِ، بَلْ قَالُوا مَا قَالُوا؛ لَشِدَّةِ جَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.

هذا، ولن يستجيب الله لعنادهم، ولا لدعائهم بأن يعذبهم، حيث يقول عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ



أي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ ولن يعذبهم الله ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾؛ لأنك بُعِثَ رحمة للعالمين، كما أن سُنَّةَ الله: أن لا يعذب قوماً فيهلكهم، ونبى الله بينهم.

وأيضاً: لا يعذبهم الله والمسلمون المستضعفون الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يستطيعوا الهجرة، ما يزالون بين أظهرهم يستغفرون الله.

ثم هل يستبعدون العذاب؟

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يعني: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ لا مانع من تعذيب الله لهم، خاصة ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ النبي ﷺ والمسلمين معه ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن يطوفوا به، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إضافة إلى أنهم ليسوا أولياء الحرم وولاية أمره كما يزعمون، إنما ﴿أَوْلِيَائُهُ﴾ الحقيقيون: هم المسلمون ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ عن الشرك، الذين لا يصدون الناس عنه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه.

ثم كيف تكون لهم الولاية؟

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

يعني: ليس لهم حق الولاية على البيت؛ لأن صلاتهم عنده ليست صلاة، وما هي إلا كما أخبر الله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيراً ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ أي تصفيقاً، هل هذه صلاة؟

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم في الآخرة تقيمون في هذا العذاب دائمين.

ومن أنباء هؤلاء الكفار أيضًا وأفعالهم ضد الدعوة ما يوضحه رب العزة في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾
أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ هم ينفقون أموالهم ﴿لِيَصُدُّوا﴾
ويمنعوا الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الدخول في دين الله، والدعوة من الانتشار، ومبادئ الإسلام من أن تكون معروفة وواضحة.

على أية حال: ﴿سَيُنفِقُونَهَا﴾ وتضيع عليهم، دون تحقيق الهدف، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لضياعتها، والندم عليها، وعلى جهودهم في جمعها، وإنفاقها عبثًا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الإنفاق للأموال، وهذا التشويه لمبادئ الدعوة، والمنع للناس عن الدخول في دين الله ﴿يُغْلَبُونَ﴾ حيث لا يتحقق لهم من أهدافهم شيء سوى الحسرة والندامة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وظلُّوا على كفرهم وعنادهم فهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ في النهاية يوم القيامة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ جزاء لهم، ونكالاً بهم.

وبذلك يكون قد اجتمع على أعداء الدعوة هؤلاء: ضياع المال، والهزيمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، وكل ذلك - بفضل الله تعالى - لصالح المؤمنين.
ويلاحظ: أن كل ذلك قد كان، ويكون:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ أي: يفصل ﴿الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: الكافر الخبيث من المؤمن الطيب ويبعده عنه، ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في مكان واحد ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي: يجعله متراكماً طبقات بعضها فوق بعض، ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ حيث العذاب الشديد، والازدحام الواضح.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: أفراد وجماعات الفريق الخبيث ﴿هُمْ أَلْخَسِرُونَ﴾ الذين خسروا أموالهم في الدنيا، وأنفسهم في الدنيا والآخرة.
ثم يقول ربنا لمحمد ﷺ:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨)

أي: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يا محمد ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ ويكفوا عن كفرهم وعنادهم وتشويههم لمبادئ الدعوة، وحربهم للإسلام، ومنعهم الناس عنه ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ﴾ كل ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وسبق من أعمالهم السيئة، التي انتهوا عنها، وتابوا منها، ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إليها، ولا يتوبون عنها، ويستمررون فيها ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ أي: وجبت فيهم، واستقرت عليهم ﴿سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهي العذاب والإهلاك.
ثم يقول ربنا عز وجل للمؤمنين:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ لَنتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ أَلَمْ تَكُنْ مَوْلَى النَّصِيرِ﴾ (٤٠)

يعني: إن لم ينتهوا عن كفرهم وعنادهم، وعادوا إلى حرب الإسلام وأهله، فـ ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ يا مسلمون ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ للمسلمين بوجودهم وحربهم لمبادئ الإسلام ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي: ينتهي كل باطل في الوجود وذلك: لا يكون إلا في عز الدولة الإسلامية.

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن الكفر، وحرب الإسلام والمسلمين، وأعلنوا إسلامهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يشيهم على إسلامهم إن صدقوا.

وبعد كل هذا، ومع كل هذا ﴿وَإِنْ﴾ لم ينتهوا، مع تَلَطُّفِ النبي ﷺ معهم، ثم مع قتالكم لهم و﴿تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن الإيمان!! ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ جيداً ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ﴾ وناصركم عليهم، ومعينكم في قتالهم، فثقوا بولايته لكم، حيث إنه ﴿نَعَمْ أَلَمْ تَكُنْ مَوْلَى النَّصِيرِ﴾ لمن تولاه ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ لمن استنصر به.

ثم قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١)

وفي هذه الآية الكريمة يبين ربنا سبحانه وتعالى: تفصيلات ما شرَّعه من غنائم الحرب، وإباحة خاصة لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة؛ حيث لم تكن هذه الغنائم حلالاً لمن كان قبلنا من الأمم.

والمعنى: ﴿أَعْلَمُوا﴾ يا أيها الذين آمنوا ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الحرب، من الكفار أن تقسيمه هكذا أربعة أخماس للمجاهدين، وخمسا واحداً للمذكورين في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ يأمر فيه بما يشاء ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: قرابته سهمان من هذا الخمس ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ ثلاثة أسهم من هذا الخمس، ذلك تقسيم الله فاقبلوه، واعملوا به ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ﴾ حقاً ﴿بِاللَّهِ﴾ تعالى، وآمنتم بـ ﴿مَا أُنزَلْنَا﴾ من الملائكة والقرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ﴾ وهو يوم بدر.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن قدرته أنه نصركم يوم بدر، وأنتم قليل على الكفار، وهم كثير.

ثم فصل ربنا للمسلمين بعض أحوال يوم بدر، مما قد يكون خافياً عليهم، فقال عز وجل:

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافُنَا فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِّقَضَىٰ اللَّهِ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّبَهْلَكِ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢)

أي: اذكروا وقت أن كنتم ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: شط الوادي القريب من جهة المدينة، ﴿وَهُمْ﴾ أي الكفار من قريش ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي: شط الوادي

البعيد عن المدينة من جهة مكة، وكان ﴿الرَّكْبُ﴾ أي: غير الكفار وقافلتههم ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: بعيدون عنكم مما يلي البحر، ولذلك: لم تتمكنوا منهم، ولم تحصلوا على ما تريدون من القافلة.

ثم قَدَّرَ الله أن تخرج إليكم قريش؛ لتحاربكم والتقيتهم معهم، وكان ذلك على غير ميعاد - للحرب - بينكم وبينهم، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ معهم على ذلك ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لأي سبب من جهتكم أو من جهتهم.

﴿وَلَكِنْ﴾ قَدَّرَ الله اللقاء على غير ميعاد بينكم، واستعداد منكم، ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهو نصركم عليهم، وأنتم قليل، وعلى غير أهبة، وبدون سلاح، وفي هذا: كمال النصر، وإعزاز الدين، و﴿لَيَهْلِكَنَّ مِنْ هَلَكٍ عَنْ بَيْنَةٍ﴾ من الكافرين مع وضوح الحق، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ﴾ من المؤمنين مع نصر الله لهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ للأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأفعال؛ فيعاقب من كفر، ويشيب من آمن.

ثم يقول الله لحبيبه ﷺ بما فيه إخبار للمسلمين:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنٌ عَلَيْهِ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٤٣)
أي: اذكر يا محمد والمسلمون معك ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المشركين ﴿فِي مَنَايِكَ﴾ أي: في رؤياك وأنت نائم ﴿قَلِيلًا﴾ حتى يهون أمرهم، ويضعف في نظرك شأنهم، وتخبر أصحابك بذلك؛ فتقوى عزائمهم.

﴿وَلَوْ أَرَادَهُمْ كَثِيرًا﴾ عددهم ﴿لَفَشَلْتُمْ﴾ أي: خفتم منهم ﴿وَلَتَنْزَعْتُمْ﴾ بينكم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ يعني: في أمر قتالهم، فيقول بعضكم: نقاتل، وبعضكم يقول: لا نقاتل، وتحدث الفتنة، ثم الهزيمة، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنٌ﴾ ونجّاكم من التنازع والفسل والهزيمة.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: القلوب، وما يحدث لها من تقلبات. أيضًا:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤)

يعني: اذكروا وقت اللقاء إذ قللهم في أعينكم؛ لتبثوا، وقللكم في أعينهم؛ ليندفعوا إلى ما فيه هلاكهم، وأغرى - بذلك - كل فريق بالآخر، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ وهو نصر المؤمنين؛ حيث ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدراً.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: تنتهي إليه يحكم فيها، وقد حكم لأهل الإيمان بالنصر.

وفي الآيات التالية: يعلم الله تعالى المؤمنين آداب اللقاء عند مواجهة الأعداء، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥)

يعني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا مؤمنون ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من أعدائكم في الحرب ﴿فَاثْبُتُوا﴾، وهذا الأدب الأول.

الأدب الثاني: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن القتال، مستعينين به على عدوكم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الحصول على النصر الذي تريدون. وأيضًا:

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦)

الأدب الثالث: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل شيء، وبخاصة في ساحات الجهاد.

الأدب الرابع: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ لا تختلفوا فيما بينكم، أو مع قادتك، ولو فعلتم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ في تحقيق النصر ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ هيبتكم وقوتكم، ويتجراً عليكم أعداؤكم؛ فيهزمونكم.

الأدب الخامس: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ في ساحات اللقاء، وعلى مشقات القتال؛ يحقق الله آمالكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالحفظ والعون والنصر.

ثم يقول ربنا موضِّحاً الأدب السادس من آداب اللقاء عند مواجهة الأعداء، والقتال معهم:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧)

يعني: اخرجوا للقتال من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه، على حال من التقوى، والخضوع ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ كهؤلاء الكفار ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ للقتال ومنع الناس عن دين الله ﴿بَطَرًا﴾ أي: فخرًا وغرورًا ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: مراعاة للناس؛ حتى يسمع الناس عنهم وعن شجاعتهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الراغبين فيه، المحبين له.

﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وهذا منتهى التهديد لهم، والوعيد بعذابهم.

هذا هو حالهم الظاهر في الخروج للقتال، لنعرف نفسياتهم كذلك في هذا الخروج وذلك من قوله تعالى:

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٨)

أي: اذكر أيها المؤمن هؤلاء الكفار وحالهم وقت أن ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ التي عملوها مع محمد ﷺ والمؤمنين من الإيذاء، والتعذيب، وهم في مكة، ثم الخروج لقتالهم في المدينة ﴿وَقَالَ﴾ لهم حينها ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: من محمد وأتباعه، ثم قال لهم: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ أساعدكم وأعاونكم عليهم، حتى تبيدونهم من الوجود، وتشجعوا به، واستجابوا لإغرائه!! وحضروا إلى «بدر» لحرب المسلمين، وإبادتهم.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ﴾ التقت ﴿الْفِئَتَانِ﴾ المسلمة والكافرة، ورأى الشيطان - الذي أغراه - الملائكة مع المؤمنين في ساحة القتال ﴿نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ رجع وولّى هاربًا ﴿وَقَالَ﴾ لهم - لمّا قالوا له: أتخذلنا، وتتركنا في هذه اللحظة، وهذا الحال -

﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ ومن جواركم، ومن نصرتكم؛ حيث ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ من الملائكة، ثم قال - وهو كاذب - ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: أخاف عقوبته.

﴿وَاللَّهُ﴾ حقيقة ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن أراد عقابه من هؤلاء الكفار، أو الشيطان، أو كل عاصٍ لأوامره، مخالف لتعاليمه.

وإذا كان هذا حال كفار مكة يوم بدر ضحك عليهم الشيطان وخذلهم، فماذا كان حال المنافقين بالمدينة؟ يوضح ذلك قوله تعالى:

﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩)

يعني: اذكر أيها المؤمن هؤلاء المنافقين ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ من ضعاف الإيمان، وماذا قالوا يوم بدر على المسلمين!!

لقد قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي: اغتر المسلمون بدينهم، ونسوا ضعفهم وقلة عددهم، حتى خرجوا بسبب هذا الغرور لقتال أهل مكة الأشداء.

ونسوا تمامًا أن ﴿مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ويعتمد عليه ويكل أمره إليه، ينصره الله على عدوه؛ حيث إن الله تعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ ينصر الضعيف المؤمن، على القوي الكافر ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوي بين عدوه ووليّه.

ثم يذكر الله تعالى ما يشفي صدور المؤمنين من الكافرين، إذ يقول عز وجل:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَھُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠)

أي: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها المؤمن ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين موتهم في ساحة المعركة، و﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الذين أمّد الله بهم المؤمنين، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ وجوه المشركين إذا أقبلوا للقتال ﴿وَأَدْبَرَھُمْ﴾ إذا ولّوا وهربوا من الساحة، يعني لو ترى ذلك: لرأيت أمرًا فظيعةً.

والملائكة يقولون لهم في هذه اللحظة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فهذه عينة منه، والعذاب الحقيقي في نار جهنم التي تنتظركم.

ثم تقول الملائكة - كذلك - لهم:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١)

يعني: ﴿ذَلِكَ﴾ هذا الذي يُفعل لكم، على أيدينا، وأيادي المسلمين من القتل والتعذيب بسبب ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ من سوء كفركم ومعاصيكم، وأيضا: بسبب ﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ حيث إنه عادل، ومن عدله أن يفعل بكم ذلك.

يلاحظ: أن ما فعله هؤلاء وما فعل بهم ليس غريبا، فعادتهم هذه في الكفر..

﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢)

أي: عادة هؤلاء في الكفر والعناد ودأبهم ﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الكافرين، وعادتهم.

وذلك: أنهم ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كما كفر هؤلاء ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وأهلكهم بسبب ذنوبهم كما أهلك هؤلاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يعجزه شيء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن طغى وتجبر وعاند، وظلَّ على كفره وعنده، حتى مات.

ثم يخبر الله تعالى أن من تمام عدله، وقسطه في حكمه: أنه لا يغيّر نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، حيث يقول جل جلاله:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣)

أي: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب، الذي نزل بكفار مكة، والذين من قبلهم: لم يكن إلا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، لأن الله جلَّت حكمته ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿٥٤﴾ وهؤلاء غَيَّرُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَى الْأَسْوَأِ، فَغَيَّرَ اللَّهُ النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لَمَّا يَقُولُهُ الْمَكْذِبُونَ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا يَفْعَلُونَ.

تَمَامًا: ﴿كَذَّابٍ عَالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاثِبٍ ظَلِيمٍ﴾ ﴿٥٥﴾

يعني: فعلنا بهم؛ لأنهم كذبوا بآيات ربهم من العذاب ما فعلنا بآل فرعون لَمَّا كَذَّبُوا، حيث أغرقناهم، وما فعلناه بالذين من قبلهم لَمَّا كَذَّبُوا، حيث أهلكناهم ﴿وَكُلُّ﴾ أي: أي فريق منهم مثلكم ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

وهكذا، بعد أن شرح الله أحوال كفار مكة بمناسبة غزوة بدر يوضح لنا - في الآيات التالية - أحوال غيرهم من الكفار، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ ﴿٥٧﴾

يقول المفسرون: نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة، حيث كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد أن لا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه أحدًا يحاربه، فنقضوا العهد، وأعانوا - في بدر - كفار مكة بالسلاح على قتال المسلمين، ثم قالوا: نسينا، وأخطأنا.

فعاهدهم النبي ﷺ مرة ثانية، ولكنهم نقضوا العهد أيضًا في غزوة الأحزاب.

ومن هنا: تبدأ الآيات في تعليم المسلمين أحكام المعاهدات.

والمعنى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويصرون على الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يتوقع منهم إيمان.

وهم: ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ﴾ أي: أخذت منهم العهد أكثر من مرة، في أن لا يعينوا عليك وعلى حربك المشركين ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ ويغدرون، ﴿وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر.

يقول الإمام النسفي - رحمه الله: جعل الله الذين كفروا شَرَّ الدواب؛ لأن شَرَّ الناس الكفار، وشرُّ الكفار: الْمُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ، وشرُّ الْمُصِرِّينَ: النَّاكُثُونَ لِلْيَهُودِ.

ألا يستحقون العذاب؟ بلى. ولذلك يقول ربنا:

﴿فَأَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٥٧)

يعني: عندما ﴿تَثَقَّفَتْهُمْ﴾ تقابلهم وتظفر بهم ﴿فِي الْحَرْبِ﴾، ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ﴾ أي: فاضربهم ضربة قاصمة لظهرهم، مخيفة لغيرهم، تجعلهم عبرة لمن بعدهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يعرفون ذلك، ويعملون لكم ألف حساب.

ويلاحظ: أن هذه الضربة لا تكون إلا إذا كان المسلمون على أعلى درجات التدريب والسلاح والتخطيط، وآداب القتال، وامتلاك كل أنواع القوة.

ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٨)

أي: إذا خفت - أيها المؤمن - من قوم بينك وبينهم عهد أن يغدروا في عهدهم معك: ﴿فَأَنذِرْ﴾ أي: اطرح إليهم العهد، بكل وضوح، قبل أن تحاربهم حتى لا تكون خائناً للعهد مثلهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الناقضين للعهد.

ثم يذكر الله تعالى المسلمين بعجز الكافرين، حيث يقول جل وعلا:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩)

يعني: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أنهم ﴿سَبَقُوا﴾ المسلمين ووصلوا إلى حال لا يُغلبون عليها، بل يُغلبون غيرهم معها، حتى وإن كان الواقع يخدع بما هم فيه، فيظن الرائي لهم أنهم سبقوا، وما قولنا ذلك: إلا بسبب أن العبرة في السبق: بالغلبة في النهاية، والتعجيز الكامل للأعداء.

وذلك ليس لهم؛ حيث يقول تعالى عنهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بل الإعجاز التام، والغلبة الحقيقية لله تعالى وحده.

ثم يوجب الله تعالى - في الوقت ذاته - على المؤمنين: امتلاك القوة، حيث يقول لهم:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠)

أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ يا مسلمون ﴿لَهُمْ﴾ أي: لأعدائكم، وامتلكوا ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بأقصى ما في وسعكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ في كل شيء، مادية، ومعنوية ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وأدوات القتال، ما يجعلكم بسبب امتلاكه، والتفوق فيه ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ تخيفون بسببه ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الذين تعرفونهم، ﴿و﴾ تخيفون به كذلك ﴿آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ من غيرهم، أو من بعدهم، يعادونكم، أو يعادون من بعدكم من المسلمين ﴿لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾ حيث يخفون عنكم عداوتهم لكم، أو لم يوجدوا بعد، بل ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾.

أيضا: أنفقوا في سبيل الله من أجل هذا الإعداد الجيد لقتال الأعداء ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قلَّ أو كَثُرَ ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافا مضاعفة من الله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في هذه الحال، لا من الله بالتقصان في الأجر، ولا من الأعداء بالهزيمة في الحرب.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١)
أي: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ يعني: مالوا ﴿لِلْسَّلَامِ﴾ وهو الصلح والمعاهدة: ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها، وصالحهم وعاهدهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في صلحك معهم، حتى ولو كنت تخشى منهم المكر في هذا الصلح، حيث إنَّ الله هو العاصم من مُكْرِهِمْ، و﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ للأقوال ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأحوال، فيعامل على أساسها.

ويلاحظ: أن الله تعالى بدأ في التحذير ممن ينقض الميثاق، ثم ممن يخشى منه نقض الميثاق، وأمر المسلمين: أن يكونوا في الوضع المناسب لكل الاحتمالات.

ثم صرَّح لهم بالمصالحة مع العدو وعقد المعاهدات - إن رغب العدو في ذلك ومال إليه - والتوكل على الله، بعد الأخذ بالأسباب كلها.

ثم قال تعالى بعد هذا كله:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

يعني: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ بهذا الصلح ﴿أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ ويغدروا بك: فلا تخف ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك، ومنجيك من غدرهم.

حيث إنه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ﴾ قواك عليهم ﴿بِبَصَرِهِ﴾ لك وأيدك كذلك ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الأنصار بالمدينة، هؤلاء الأوس والخزرج، الذين كانوا متفرقين.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٣)

يعني: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ الذي كان بينهم، والذي ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بعد هذا العداء الطويل استطعت، و﴿مَّا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بفضله ورحمته ﴿أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ وجمع كلمتهم، ووحد صفهم، وأزال الحقد من قلوبهم.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يخدعه أحد ﴿حَكِيمٌ﴾ ينصر مَنْ يشاء، إذا شاء.

بعد هذه التوجيهات حول العهود والمعاهدات، يأتي حديث هام حول «أدب القيادة ودورها في قضية وفرضية الجهاد»، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤)

آية: فيها بث الثقة والطمأنينة الكاملة في نفس القيادة، قبل الدخول إلى أية معركة، أو أية مواجهة مع العدو.

والمعنى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ يا أيها القائد المسلم ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ يكفيك أنت ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في إحراز النصر على الأعداء، فكن واثقاً به، متوكلاً عليه، آخذاً بالأسباب قدر طاقتك.

ثم: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥)

يعني: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ يا أيها القائد المسلم ﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ شَجِّعْهُمْ، وبث الثقة فيهم، وبشّرهم بنصر الله ووعده، إنه ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أن الجماعة المسلمة إذا صبرت وثبتت في ساحة القتال تهزم من الأعداء عشرة أمثالها.

وما ذلك: إلا لأن المسلمين يحاربون لهدف وغاية سامية، وعقيدة صحيحة، ورغبة في نوال مرضاة الله، وأما الذين كفروا، فهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً من ذلك. وكان هذا أمراً للمسلمين: بأن يقاتلوا من الكفار عشرة أمثالهم ويشبّوا في مواجهتهم، مهما كان عددهم، ثم لما ثقل عليهم ذلك: خَفَّفَ الله عليهم بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦)

﴿الَّذِينَ﴾ البشارة لكم - يا مسلمون - بالنصر على الأعداء، ولكن ﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ في العدد الذي تواجهونه من الأعداء فصار مثلين، بدلاً من عشرة أمثال، ﴿وَلَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ﴾ عِلْمٌ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا.

وبذلك: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته، فاثبتوا واصبروا ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وبعد موقعة بدر أسر المسلمون عدداً من الكفار، واستشار النبي ﷺ أصحابه في شأن هؤلاء الأسرى.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: نأخذ الفدية فيهم، ونطلق سراحهم، وقال عمر الفاروق رضي الله عنه: نقتلهم، وقال غيرهما: غير ذلك.

ومال الرسول ﷺ لرأي أبي بكر رضي الله عنه في أخذ الفدية، وإطلاق سراحهم، وفعل. وهنا: نزل القرآن بخصوص هذا الموضوع، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧)

والآية: فيها العتاب لرسول الله ﷺ، والمؤمنين على أخذ هذا الفداء.
 والمعنى: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ أي: يأخذ في عملية
 الأسر أصلاً، ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يجهز على الكفار إجهاراً تاماً، ويشيع
 الرعب في الباقيين منهم؛ بما يعز الإسلام وأهله، ثم يكون الأسر بعد تحقيق ذلك، خاصة
 وأن «بدرًا» أول المعارك، مع الكفر وأهله.
 ثم يقول لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ الزائل؛ بأخذكم هذا الفداء، مع أن الله
 ﴿يُرِيدُ﴾ لكم السعادة في الآخرة؛ بإجهادكم عليهم، وقهركم لهم.
 ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يهزم أعداءه ويقهرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يعاتب أولياءه.
 ولأن النبي ﷺ وأصحابه اجتهدوا في موضوع الأسرى، ولأنه لا يعاقب على اجتهد
 فيه صدق وإخلاص، فهو يقول عز من قائل:

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
 يعني: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ في أن لا يؤاخذ ويعاقب أحدًا قبل بيان الحكم
 ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: نالكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من هذا الفداء، وبسببه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
 وهذا عتاب: على ترك الأولى، وليس على شيء محرم.
 أي: أنهم أخذوا الفداء في الأسرى، وليس محرماً عليهم، وكان الأولى أن يهلكوهم
 قتالاً في ساحة المعركة، ولذلك وحتى لا يفهم أنهم أخذوا محرماً عليهم وهي الفدية،
 فإن الله تبارك وتعالى يقول لهم:

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
 أي: ﴿فَكُلُوا﴾ مباح لكم الأكل دون عتاب أو مؤاخذه ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من فداء
 الأسرى وغيره ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾.
 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وراقبوه في تصرفاتكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل، ومن
 ذلك موضوع الأسرى ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث أحلَّ لكم كل ما غنمتم.
 وبما أن الفدية قد أُجيزت، والأكل منها قد أُبيح، فإن الله عز وجل يقول لحبيبه ﷺ
 بعض التوجيهات التي يبلغها لهؤلاء الأسرى، حيث يقول له:

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠)

إنها دعوة رقيقة مهذبة حكيمة: للدخول في الإسلام.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ لهؤلاء الأسرى الذين معكم وفي أيديكم ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ ولا خير أفضل من الإيمان بعد الكفر.

ومعنى الكلام: اجعلوا في قلوبكم خيراً، يعني: آمنوا، فإذا آمنتم وتشرفتتم بالدخول في هذا الدين ﴿يُؤْتِيَكُمْ﴾ الله ﴿خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ من الفدية؛ حيث يرزقكم أضعافه في الدنيا، ويثيبكم على إيمانكم في الآخرة، وفوق ذلك ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ كل ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على الكفر وما كان فيه، بعد الإسلام وما يصير معه.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١)

يعني: ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أي: إذا كان هؤلاء الأسرى، لا يريدون الدخول في الإسلام بل يريدون بعد إطلاق سراحهم ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بالكيد لك، وحربك: فلا تخش منهم ولا من كيدهم شيئاً، ﴿فَقَدْ﴾ سبق، و ﴿خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بكفرهم من قبل أسرهم.

فماذا حدث؟ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أمكن الله منهم بأن أظفرك بهم، ونصرك عليهم وجعلك تأسرهم، وإن عادوا للخيانة لك، والحرب معك: فسيمكّن منهم مرة أخرى، وهذه بشارة بالنصر الدائم للمسلمين إذا التزموا بدينهم على الأعداء.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهم وبما يفكرون فيه ﴿حَكِيمٌ﴾ في بشارتك بالنصر عليهم.

ذكرت هذه السورة في آياتها الأولى بعضاً من صفات المؤمنين الحقيقيين، وكان ذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤) [الأنفال: ٢ - ٤]

وفي آيات خاتمة هذه السورة: يرينا الله عز وجل نماذج من هؤلاء المؤمنين، ويحدثنا عنهم، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

وفي هذه الآية: يذكر الله تعالى من المؤمنين ثلاثة أصناف، ثم يذكر حكم التعامل مع كل صنف منهم:

الصنف الأول: الذين آمنوا وهاجروا ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من ديارهم إلى المدينة ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الصنف الثاني: الذين آمنوا ونصروا ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا﴾ إخوانهم المهاجرين ﴿وَنَصَرُوا﴾ هم، ونصروا الدعوة ﴿أُولَئِكَ﴾ الصنفان: المهاجرون والأنصار: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في النصرة، وفي الميراث أيضًا، حتى نسخ التوارث بينهم بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي

كِتَابِ اللَّهِ﴾. [الأنفال: ٧٥]

الصنف الثالث: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ وظلوا في مكة، وهؤلاء ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا ولاء بينكم وبينهم؛ لأنهم لا يستطيعون لكم نصراً، وما كانوا يتوارثون مع مؤمني المدينة، وذلك الحكم مستمر ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ فيصير حكمهم حكم سائر المسلمين الذين هاجروا من قبل، وإن ظلوا في مكانهم ولم يهاجروا، ووقعت بينهم وبين الكفار حرب ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: باسم الدين الذي يربط بينكم وبينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والمعاونة لهم.

﴿إِلَّا﴾ إذا استنصروكم ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ على عدم الحرب: فلا يلزمكم معاونتهم، بحكم هذا العهد والميثاق.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فالتزموا بشرعه، ولا تتعدوا حدوده.

وإذا كان هذا وضع المؤمنين، والتعامل بينهم، فما حال الكافرين والتعامل معهم؟
يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

يعني: أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فـ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون فيما بينهم،
ويتوارثون فيما بينهم، وليس بينكم وبينهم أية موالاة، ولا أية صورة من صور التقارب
والمودة، حتى ولو كانوا أقارب لكم.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: موالاة المؤمنين، وقطع موالاة الكافرين، كما يأمركم الشرع
﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بإضعاف المسلمين، وتقوية الكافرين.
وأما هؤلاء المهاجرون والأنصار، فـ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]، يقول
الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ
هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤)

يعني: الصنف الأول: وهم الذين آمنوا وهاجروا، وجهدوا في سبيل الله.
والصنف الثاني: وهم الذين آووا ونصروا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم
صدقوا إيمانهم، وحققوه في دنيا الواقع.

وهؤلاء ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

وهناك صنف رابع من المؤمنين يذكره الله تعالى في قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥)

وهذه الآية: تتحدث عن المؤمنين الذين هاجروا بعد الحديبية، في العام السادس،
وحتى عام الفتح.

يعني: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا﴾ بعد السابقين الأولين، الذين هاجروا قبل
العام السادس ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ يا من هاجرتم قبلاً، ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أيها

المهاجرون قبلاً، والأنصار، حكمهم حكمكم في الموالاة والنصر والمودة، ثم يقول ربنا عز وجل بالنسبة للتوارث بالهجرة، الذي كان يتم بين المسلمين الأوائل:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: الأقارب ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الإرث من التوارث بالإيمان والهجرة، وذلك الحكم الجديد بخصوص الإرث، الذي ينسخ الحكم القديم، أحق ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ اللوح المحفوظ، أو القرآن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن ذلك حكم الميراث هذا، فالتزموا به، ولا تخالفوه.

وبهذا انتهت - والحمد لله - سورة الأنفال.
